الحياة الروحية في منطقة زواوة خلال الفترة الحديثة

أ/ محند أكلي آيت سوكي
قسم التاريخ والآثار، جامعة سطيف 2

تعتبر الحياة الروحية في أي مجتمع من المجتمعات مظهرا من المظاهر الفكرية في حياة أفراد هذا المجتمع، والمجتمع المحلي في منطقة زواوة يتميز بمجموعة من الخصائص التي تبين تأثير الجانب الروحي في الحياة اليومية للفرد، ومن هذه الخصائص والمميزات التي لها تأثير مباشر على الأفراد بمختلف شرائحهم، وفئاتهم، الفكر الصوفي والطرقي الذي انتشر في مختلف نواحي المنطقة، وكذلك تأثير فئة المرابطين (إمرابظن)[1] في توجيه السكان واستمالتهم. وقد أسهمت هاتين الفئتين في الحياة الفكرية سواء على المستوى المحلي، أو على المستوى المغاربي، وكذا على المستوى الإسلامي عامة.

فالحياة الروحية في المنطقة، المقصود منها كل ما له علاقة بالدين الإسلامي، سواء تعلق الأمر بالحياة الصوفية ومساهمتها في توجيه الفكر المحلي، وكذلك الدور الذي لعبته فئة المرابطين، والأشراف، وما يطلق عليهم الأولياء عامة في الحياة الفكرية في المجتمع الزواوي، إضافة إلى الطرائق الدينية المحلية والوافدة، والتي لها علاقة كبيرة في إسهامات علماء المنطقة في الحياة الفكرية داخل المجتمعات الإسلامية عامة.

- لمحة حول الحياة الصوفية في منطقة زواوة :

تعتبر مدينة بجاية مدرسة من مدارس التصوف الإسلامي في بلاد المغرب، وبفضل موقعها وشهرتها، قصدها العديد من العلماء الذين نبغوا في هذا الميدان الفكري، ومن بين أشهر هؤلاء العلماء الذين نبغوا في الفكر الصوفي، وتركوا بصماتهم في الحياة الفكرية عامة، والصوفية بوجه خاص في بجاية، الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأشبيلي الأندلسي[2]، الذي استقر بها في العقدين

الأخيرين من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على إثر رجوعه من المشرق[3]، ومن أشهر تلامذته في بجاية العلامة عبد الرزاق الجزولي دفين الإسكندرية بمصر- وهو ليس أبو موسى الجزولي - وكذلك جعفر الخزاعي الذي انتقل إلى غرناطة، والعالم الصوفي عبد الله بن مشيش شيخ الصوفي أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية... وعلى يد هؤلاء تخرج العديد من العلماء الذين ساهموا في تأسيس المدرسة الصوفية البجائية التي ظلت تؤدي دورها في نشر الفكر الصوفي بالمدينة خاصة، وببلاد المغرب الإسلامي عامة طيلة القرون التالية لفترة أبي مدين، فتخرج العديد من المتصوفين الذين اشتهروا في المنطقة، أو خارجها أمثال: الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الزواوي، المعروف في المنطقة بالشيخ سيدي علي نتغلاط[4]، وكذلك الشيخ أحمد بن إدريس البجائي[5]، وغيرهما من علماء التصوف.

أقسام التصوف في المدرسة البجائية : لقد عرف التصوف الإسلامي أقساما عدة، تركت تأثيرها في المدرسة الصوفية البجائية التي برزت فيها أنواع من الأفكار الصوفية والتي من أهمها:

أ- التصوف السني : الذي سار مقتديا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والاهتمام بالعبادة، والزهد في الدنيا[6]. وهذا النوع من التصوف قد عرف انتشارا واسعا بين الفئات المثقفة من السلف الصالح الذي استمد إلهاماته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[7]، وقوام هذا النوع من التصوف، يعتمد على مجموعة من الإرشادات والسلوك الفردي في الحياة اليومية، لتكون عونا للمسلم في معرفة ما يتفق مع الدين والسنة من التصرفات، وهي التعاليم التي ركز عليها الشيخ زروق في علمه الإصلاحي، والذي بناه على مجموعة من الأفكار ومن بينها: الدعوة إلى طاعة الأمراء إلا في محرم مجمع عليه، والتصديق للعلماء إلا فيما لا يهدي العلم إليه، والتسليم للفقراء فيما لا إنكار يجب عليه، فالتصوف السني في الفكر الإصلاحي عند الشيخ زروق، يعتمد على

النصح لا التشنيع أو التحذير أو الإنكار، وقد ضم أفكاره هذه في كتابه (النصيحة الكافية).

من بين الكتب التي ألفها الشيخ زروق في التصوف السني، ذلك الكتاب الذي بدأ تأليفه في منطقة زواوة أواخر القرن التاسع الهجري/ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، بأمر من شيخه يحيى العدلي الذي لازمه بزاويته في قرية تمقرة مدة من الزمن، آخذا عليه علوم الباطن[8]، وقد امتثل لأمر شيخه في تأليفه لهذا الكتاب الذي يحمل عدة عناوين منها(قواعد التصوف في الجمع بين الشريعة والحقيقة)، و(قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الفقه بالطريقة)، وكذلك عناوين أخرى تدل على أهمية الكتاب الذي يحمل عصارة فكر الشيخ زروق الإصلاحي في التصوف السني، الذي يدعو فيه إلى نهضة علمية وتعليمية مبنية على الاجتهاد والتجديد، مقدما حلولا للمشاكل المطروحة في عصره الذي افترق أهله بين فقهائه وفقرائه، وطمع فيه القائم على الرئاسة الروحية في الرئاسة الدنيوية، وانعدم فيه المتوجه بصدق إلى الله[9].

لقد ترك الشيخ زروق أثره في المدرسة الصوفية البجائية السنية خلال الفترة التي تلت بقاءه في المنطقة، كما تأثر هو كذلك بعلماء المنطقة وعلى رأسهم شيخه الذي لازمه بزاويته مدة من الوقت قبل انتقاله إلى المشرق.

ب- **التصوف الفلسفي:** وهو التصوف الذي أصبح أتباعه يعتمدون في وصف أحوالهم على الاستبطان، وعلى لغة الإشارة دون لغة العبارة، وعلى التلميح دون التصريح[10]. ويعتبر هذا القسم بمثابة المرحلة الثانية من مراحل تطور الفكر الصوفي الإسلامي. فإذا كانت المرحلة الأولى هي مرحلة النشأة، أو مرحلة التصوف العملي الخالص. فإن المرحلة الثانية هي مرحلة امتزاج التصوف العملي بالنظر وبالفلسفة، وذلك من خلال الأخذ بالحقائق إلى جانب اليأس فيما بيد الخلائق، والملاحظ في هذه المرحلة أنها بدأت معالمها في الظهور بداية من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فبعدما كانت الخشية من الله تعالى سببا في

تعبد الزاهد، أصبحت محبة الله جل جلاله من أهم ركائز الزهد والتصوف[11] وهذه الظاهرة هي التي أدخلت التصوف في مناظرات فلسفية، حولته إلى علم قائم بذاته.

من المتصوفين الأوائل الذين صنفوا في هذا الاتجاه نجد (معروف الكرخي) الذي ارتقى بالتصوف من منظور عملي قائم على الزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة، إلى تصوف عملي مرتبط بالفلسفة والنظر في ذات الله تعالى. فالكرخي، يعد من الأوائل الذين وضعوا قواعد علم التصوف الذي انتشر بين مختلف الشعوب الإسلامية سواء في المشرق الإسلامي أو مغربه، ولا شك في أن هذا الانتشار قد دخل منطقة زواوة حتى وإن كان ذلك متأخرا.

ومهما يكن، فإن التصوف الإسلامي مر بثلاث مراحل رئيسة، يمكن تلخيصها في:

- **المرحلة الأولى**: مرحلة النشأة، وهي المرحلة التي كان فيها التصوف قائما على العبادة والتفرغ لها، من خلال الزهد في الحياة وترك ملاذها.
- **والمرحلة الثانية** هي: مرحلة امتزاج التصوف بالتأمل في ملكوت الكون، مما جعل التصوف يتخذ منهجا فلسفيا بين العلماء.
- أما **المرحلة الثالثة** فهي: مرحلة التقليد التي أثرت في منطقة زواوة بشكل كبير، وأثرت كذلك في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

وعن التصوف في منطقة البحث فقد مر بالمظاهر الآتية:

- **الزهد** في الحياة والتفرغ للعبادة: وذلك من خلال العلماء الذين فضلوا النواحي الجبلية البعيدة عن صخب المدينة، فاتخذوها مقرات لإنشاء مؤسسات تعليمية، استقروا فيها وعملوا على نشر التعليم وتوجيه العامة إلى الدين الصحيح.
- **الولاية** : لقد عرفت منطقة زواوة عامة انتشارا واسعا لظاهرة أولياء الله الصالحين بداية من نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فانتشر دعاة الولاية في مختلف أرجاء المنطقة، مستغلين حب السكان لآل

البيت، بل لكل قادم من الشرق، فاستقروا في المنطقة، سواء كانوا حقيقة من آلبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ادعاء بذلك.

- **الطرائق الصوفية**: وهي المرتبة الثالثة فيما يخص الظاهرة في المنطقة، حيث بدأت تظهر طرائق صوفية بعضها وافد إلى المنطقة من المشرق الإسلامي، وبعضها محلي، كالطريقة الرحمانية التي تمكنت في فترة وجيزة من الانتشار في مناطق عديدة من الجزائر.

- **الدروشة** : وهي المرحلة الأخيرة التي دخل فيها التصوف مرحلة الانحطاط، والخرافة والابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي، وقد ساعدت عدة جوانب على انتشار هذا الفكر من بينها المستوى الفكري للسكان، وأيضا السلطة العثمانية التي ساعدت على انتشار الظاهرة خدمة لأغراضها، وبعد الاحتلال غذ الاستعمار هؤلاء بشكل ملفت للانتباه.

وبعد سقوط بجاية في يد الأسبان سنة1510م، بدأت مدرسة هذه المدينة الصوفية تفقد مكانتها، وذلك بسبب مغادرة علمائها، وأعيانها لها خوفا من الاضطهاد المسيحي لهم. وبذلك ترك هؤلاء العلماء تأثيراتهم واسهاماتهم في النواحي الداخلية للمنطقة، وبدأت تظهر الطرائق الصوفية المتعددة بشكل جلي في منطقة زواوة.

- الطرائق الصوفية في منطقة زواوة :

إن منطقة زواوة قد عرفت خلال فترة البحث، وقبلها عدة طرائق صوفية أثرت في الحياة الفكرية بالمنطقة من جهة، وساهمت في الحياة الروحية سواء على المستوى المحلي أو الإسلامي من جهة أخرى، وهذه الطرائق يمكن تصنيفها من حيث طبيعتها في صنفين رئيسيين هما :

- **الطرائق الصوفية الخلواتية** : وهي الطرائق التي يدعي شيوخها معرفة أسرار الغيب الدينية في الخلوات التي يتخذونها لأنفسهم، وقدرتهم على تلقينها لأتباعهم الذين تطلق عليهم أسماء مختلفة كالمريدين، أو الفقراء أو الإخوان[12]، كما يفرض الشيخ على المريدين أذكارا يكررونها في أوقات معلومة تعرف بـ

(الورد)، الذي يتلى يوميا من طرف المريدين فرادى، أو جماعات في حلقات خاصة وفي أوقات معينة معلومة.

هذا ما جعل شيوخ هذه الطرائق، يعرفون باسم الطرقيين. لكون كل واحد منهم له طريقة خاصة يتبعها ويفرضها على أتباعه من المريدين والإخوان والفقراء في الذكر. ومثال ذلك ذكر الاسم الأعظم (الله) في الخلوات الخاصة والحضرات الجماعية عند الرحمانيين في الطريقة الرحمانية[13].

- **الطرائق غير الخلواتية:** وهي التي لا يدعي شيوخها معرفة أسرار دينية معينة، ولا يتخذون لأنفسهم خلوات خاصة بهم، ولكن يتخذون لأتباعهم وردا معينا من الأذكار، والصلوات يتلونها عقب كل صلاة، أو بعضها كصلاة المغرب أو الصبح، ويطلق على هذه الأذكار اسم الوظيفة.

إن شيوخ هده الطرائق عادة يتصدون لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، وتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية، ويفرضون على أتباعهم بعض الأذكار الخاصة والتي تعرف بـ (الهيللة).

ومن هنا يمكن اعتبار هذا النوع من الطرائق غير الخلواتية بمثابة كتاتيب قرآنية يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة يعبر عنها ب"المعمرات" في المنطقة[14].

فالمنطقة من خلال هذا تشتمل على نوعين رئيسيين من الطرائق الصوفية، ومن هاتين المجموعتين تتفرع طرائق أخرى يأتي الحديث عليها في المبحث الأخير.

- دخول التصوف إلى المغرب الأوسط عامة ومنطقة زواوة خاصة :

يعتبر تحديد تاريخ دقيق لدخول التصوف إلى المغرب الإسلامي، من الأمور التي يجد الباحث فيها صعوبة كبيرة، وذلك لأن الفكر الصوفي في المغرب الإسلامي يعتبر امتدادا للتصوف في المشرق. ولذلك لا يمكن دراسة الظاهرة في المنطقة بمعزل عن التصوف الإسلامي عامة، سواء تعلق الأمر بتأثر المجتمعات المغاربية وعلماء المغرب بالفكر الصوفي المشرقي، أو تأثير وإسهامات علماء المغرب الإسلامي في الحياة الفكرية الإسلامية عامة، والصوفية بوجه خاص في

المشرق، فالتصوف في المغرب الإسلامي عامة، ومنطقة زواوة خاصة، لا يمكن البحث فيه بمعزل دون التعرض إلى خلفيات الظاهرة في العالم الإسلامي بشكل عام، وهذا نتيجة التأثير المباشر للمتصوفين المغاربة الذين تكونوا في المشرق الإسلامي، بداية بالفترة التي سبقت القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي[15]. وكذلك بفعل مساهمة المغاربة في الحياة الروحية عامة والصوفية بوجه خاص في المشرق الإسلامي.

إن التصوف في المغرب الإسلامي، تأثر بشكل كبير وواضح بالتغيرات التي عرفها العالم الإسلامي خاصة مشرقه. ومن خلال هذا يمكن أن أستخلص بأن نشأة التصوف المغاربي ناتج عن التصوف الإسلامي بالمشرق، فهو إذا امتداد طبيعي للتصوف الإسلامي عامة. وهذا ما جعل الكثير من الباحثين يجمعون على أن الحركة الصوفية انتشرت في المغرب الإسلامي بداية من القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي، إذ انتشرت آراء الغزالي من خلال كتابه الأحياء[16].

فانتشار كتاب الغزالي في بلاد المغرب عامل ساعد على ظهور الكثير من الزهاد، وأقطاب التصوف، قبل القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي مثل: أبو مدين البجائي وابن مشيش[17] وأبو الحسن الشاذلي[18] وغيرهم.

فالفكر الصوفي لم يكن جديدا في المنطقة، بل كانت له جذور قديمة قبل مجيء العثمانيين، وذلك من خلال المتصوفين الذين مروا ببجاية، أو استقروا بها أمثال: ابن عربي[19] الذي حل ببجاية في حدود القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي، وكذلك ابن السبعين[20] والششتري[21] وغيرهم من العلماء الذين تركوا تأثيرهم وإسهاماتهم في التصوف بمنطقة زواوة، لكون هؤلاء العلماء «لم يكتفوا بالعبادة والسلوك الأخلاقي، وإنما كانوا يدرسون نظريات المعرفة للوصول إلى الحقيقة الإلهية بالمقاييس العقلية»[22]. فتأثر بهم الكثير من أبناء المدرسة البجائية الصوفية، التي سبقت غيرها من المدارس الأخرى بالمغرب الأوسط. كمدرسة الشيخ عبد الرحمن الوغليسي (ت 786هـ/1388م) التي تعتبر من أقدم المدارس الصوفية بالمغرب الأوسط. بعد مدرسة شيخه أبي مدين التي سبق

ذكرها، وقد تخرج من هذه المدرسة كذلك عدد من العلماء الزواوين الذين يعدون بمثابة جهابذة الفكر الصوفي[23] وقد ساهم هؤلاء العلماء في وضع قواعد التصوف الإسلامي بالمنطقة أمثال : أحمد بن إدريس البجائي أستاذ عبد الرحمن الوغليسي[24] وأحمد بن إبراهيم البجائي[25] ويحيى العدلي[26] وعبد الرحمن الثعالبي[27] وأحمد زروق البرنسي[28] وغيرهم.

فهؤلاء جميعا ساهموا مساهمة كبيرة في دخول التصوف إلى عمق منطقة الزواوة، خاصة بعدما أسس (ابن إدريس) زاويته العلمية في المنطقة الجبلية الداخلية بالقرب من "عزازقة "[29]. وذلك في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي . وبعده الشيخ يحي العدلي الذي أسس زاويته بقرية تمقرة[30]. وبذلك بدأت ملامح الأفكار الصوفية تتوغل بين الأوساط الشعبية في المناطق الجبلية الداخلية، سواء في زواوة الشرقية، أو الغربية، وبعد دخول العثمانيين إلى الجزائر، عرفت المنطقة انتشارا واسعا للحركة الصوفية، مثلها مثل بقية مناطق البلاد الأخرى. وذلك نتيجة انحسار دور رجال الدين والزهد، وبروز دور رجال السلطة من الفقهاء والعلماء الراغبين في الدنيا والنفوذ، ولعل ما يذكره كل من ابن الفكون، والورثيلاني فيما بعد خير دليل على هذا الأمر[31].

أما من حيث الجذور التاريخية لتصوف علماء المنطقة خاصة، والمغرب الإسلامي عامة، فإن جل المهتمين بهذا الجانب يجمعون على أن أفكار أبا حامد الغزالي قد تركت أثرها في التصوف المحلي من خلال كتابه الأحياء، وهو الشيء الذي يشير إليه ابن قنفذ (ت 810هـ/1407م) عندما قال بأنه "توارث الخرقة الصوفية من مشايخ يتسلسلون إلى أبي مدين الذي ورثها بدوره عن ابن حرزهم عن أبي بكر بن العربي عن أبي حامد الغزالي عن أبي المعالي عن الجنيد عن السري السقطي عن معروف الكرخي عن داوود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم"[32].

وبالنسبة لمنطقة البحث خلال الفترة الحديثة قد مر التصوف في المنطقة بمرحلتين :

المرحلة الأولى: تمتد من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وهي المرحلة التي تبدأ بدخول العثمانيين إلى الجزائر وتحرير مدينة بجاية من الإسبان سنة 962هـ /1555م وتتميز هذه المرحلة بـ:

- استمرار الطرائق المشرقية الوافدة إلى المنطقة في الانتشار، وعلى رأسها الطريقة القادرية التي أدخلها الشيخ (أبو مدين بن شعيب) إلى منطقة زواوة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهي الطريقة الأم التي تفرعت عنها الكثير من الطرائق الصوفية منها الطريقة الزروقية التي تنسب إلى الشيخ سيدي (أحمد زروق البرنسي)، الذي كون مدرسة صوفية بمنطقة زواوة الشرقية، وهي المدرسة التي تخرج منها الكثير من العلماء الذين ساهموا في نشر التصوف بالمغرب الأوسط عامة أمثال: أحمد بن يوسف الملياني[33]، ومحمد الصغير الأخضري، وابنه عبد الرحمن، والعالم محمد بن علي الخروبي وغيرهم من العلماء الين ساهموا في نشر الطريقة الزروقية في مختلف مناطق الجزائر، وعلى رأسهم الخروبي، والأخضري اللذان عملا على نشر هذه الطريقة في مختلف مناطق الجزائر[34].

كما أن هناك متصوفين آخرين تركوا تأثيرهم على هذه الفترة بالمنطقة، ومن بينهم الشيخ سيدي أحمد تواتي (ت 922هـ/1529م)، الذي كانت له مؤلفات كثيرة وشهرة كبيرة عند أهل بجاية في عصره[35] وفتاويه لا ترد من بجاية إلى توزر[36] خلال نهاية القرن التاسع، وبداية العاشر الهجري[37]، وقد استعان به العثمانيون في الدفاع عن البلاد ضد الغزو الاسباني، وظلت زاويته ببجاية إلى غاية سنة 1228م/1813م[38].

- استعانة العثمانيين بالفقهاء، والعلماء، ورجال التصوف، في الدفاع عن البلاد ضد الغزو الإسباني عن السواحل المغربية، وقد كان هؤلاء بمثابة سند لهم في الدفاع عن المنطقة ، وتأدية دورهم الجهادي ضد النصارى[39] في الحوض الغربي للمتوسط عامة.

- اقتصار التصوف على العلماء والفقهاء، ففي القرن العاشر الهجري/16م كان التصوف مقصورا على الطبقة المثقفة من العلماء والفقهاء، أما طبقة العامة فإن انتشار التصوف بينهم لم يكن واسعا، وذلك يعود حسب اعتقادي إلى أن معظم أفراد الطبقة المتعلمة كانوا يقيمون بالحواضر. أي أن التصوف لم يتخذ بعده الريفي في هذه المرحلة، بل ظل تصوفا نخبويا، خاصة في بداية المرحلة، لكونه امتداد للتصوف الذي وضع معالمه الشيخ زروق. بينما عرف القرن الحادي عشر الهجري/17م بداية حقيقية لانتقال الطرائق الصوفية إلى الجهات الداخلية، وذلك بفعل هجرة العلماء من المدينة بعد احتلالها.

- عدم بروز طرائق محلية: إذ نجد بأن الطرائق الصوفية المنتشرة في المنطقة طرائق وافدة إليها ولم تكن محلية. فحتى وإن كانت الطريقة الزروقية التي ظهرت بمنطقة زواوة[40]. ولكن مؤسسها قدم إليها من المغرب الأقصى، ولم يكن من أبنائها، فمثله مثل ابن خلدون، الذي استقر مدة ببجاية وتأثر بها. فالمنطقة خلال هذه المرحلة لم تعرف ظهور طرائق صوفية محلية، رغم تعلم الكثير من العلماء في زوايا المنطقة وعلى علمائها. أمثال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، والمليانى، والأخضري... وغيرهم من كبار علماء التصوف في المغرب الأوسط. فهؤلاء لم يؤسسوا طرائق صوفية بالمنطقة، رغم كونهم من العلماء المتصوفين، وذلك يعود حسب اعتقادي إلى انتشار المرابطين الأشراف، الذين كانوا يعملون على نشر العلم بالمنطقة. فمعظم المرابطين الذين حلوا بالمنطقة كانوا في نهاية القرن الثامن الهجري/14م والتاسع هجري/15م، وهي نفس الفترة التي عرفت توافد هؤلاء المتصوفين إلى المنطقة وعملوا على تأسيس الزوايا العلمية بها. فبقى هؤلاء المرابطون بالزوايا التي أسسوها، والتي تحولت إلى أماكن مقدسة يقصدها الناس والمريدون، الذين يقدمون لهم الصدقات والهبات[41].

فهذه المرحلة، تعتبر بمثابة امتداد للقرن التاسع الهجري، الذي عرف حركة نشيطة لطائفة المرابطين خاصة الأشراف (المرابطون)، إلا أن الاضطرابات التي عرفتها المنطقة، والناتجة عن الحروب التي استهدفت تحرير

المدن المحتلة من الإسبان، وبعد ذلك، الصراع بين القوى المحلية الدينية والسياسية (آل القاضي، وإمارة بني عباس) فهذا الصراع فسح المجال أمام المتطفلين على العلم، والدين في الانتشار بالمنطقة، وبالمغرب الأوسط عامة[42]. وبذلك بدأ ينتشر التصوف المنحرف عن تعاليم الدين الإسلامي ، فانتشرت البدع والخرافات، بين الناس. دون أن تظهر بالمنطقة شخصية قادرة على جمع الناس حولها، وهذا ما ساعد على انتشار الفوضى وانعدام الأمن في منطقة القبايل[43] (زواوة).

وعلى كل، فإن هذه المرحلة قد عرفت انتشار الطرائق الصوفية الوافدة إلى المنطقة سواء من الشرق، كالقادرية أو الغرب كالشاذلية التي عرفت انتشارا واسعا بين علماء المنطقة، امتد هذا الانتشار إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر هجري /17م، ودليلنا في ذلك، إتباع العديد من علماء وفقهاء المنطقة، أو الذين تعلموا فيها لهذه الطريقة الصوفية. بداية بالشيخ أحمد بن يوسف الملياني والشيخ محمد السعيد الشلاطي[44]. وكذلك الشيخ الحسين الورثيلاني [45].

هذا وقد عرفت المنطقة في نهاية القرن الحادي عشر هجري /17م بداية بروز الصراع بين القوى المتصوفة والفقهاء. خاصة وأن العلماء الذين قدموا إليها ، وجدوا صعوبة في التعامل مع الأعراف المنتشرة في قرى المناطق الداخلية[46] لبلاد زواوة.

المرحلة الثانية : وهي التي يمكن تحديد إطارها الزماني فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر هجري /18، 19م. وقد عرفت هذه المرحلة انتشار التصوف في الجهات الداخلية الجبلية من المنطقة، وذلك بفعل انتشار الطرائق الصوفية بين الأوساط الشعبية، نتيجة لنشاط الزوايا العلمية والزوايا التي كانت تابعة لبعض شيوخ الطرائق الصوفية الذين انتقلوا إلى النواحي الداخلية الجبلية ليؤسسوا فيها زواياهم، وذلك بعد تراجع دور مدينة بجاية المحتلة، وحتى بعد تحريرها سنة 1555م ظل دورها العلمي والفكري بعيدا عما كانت عليها من قبل.ففقدان المدينة لأهميتها الفكرية، ودورها الحضاري جعل المثقفين من العلماء والفقهاء والمتصوفين، يتخذون من النواحي الجبلية أماكن لاستقرارهم

وتأسيس زواياهم فيها، فانتقل التصوف النخبوي- أي الذي كان مقتصرا على العلماء- إلى التصوف الشعبي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قامت السلطة المركزية المتمثلة في الحكم العثماني، أو أعيانهم في المنطقة، بالعمل على مساعدة هذا الانتشار الواسع للطرائق الصوفية للاستفادة من تأثيرهم على عامة الناس[47].

إن هذا التحول قد ترك آثارا إيجابية في المنطقة، والمتمثلة في انتشار التصوف في الجهات الجبلية الداخلية، كما ترك آثارا سلبية خاصة ما يتعلق بتراجع المستوى العلمي، وكذلك الإنتاج الفكري خلال هذه المرحلة الذي اتخذ منحى طغى عليه الجانب الخرافي كالمؤلفات الخاصة بذكر مناقب الأولياء، وكتب التصوف تمجيدا لعلماء ومشايخ فضلوا الزهد والابتعاد عن السلطة، واهتموا بالعامة وانعزلوا عن المجتمع الذي ساد فيه الظلم، وقلّ فيه العلم، فهو رد فعل سلبي ضد السلطة القائمة خلال هذه الفترة[48]، غير أن التصوف عرف تزايدا من حيث الأتباع والمريدين، لكون معظم علماء المنطقة وفقهائها كانوا يتبعون مشايخ الطرائق الصوفية، وعلى رأس هذه الطرائق الطريقة الشاذلية وفروعها كالزروقية[49]. فالقرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي قد أعاد المنطقة إلى الصراع الذي كان فيها من قبل بين الفقهاء والعلماء فعرفت المنطقة تحولا أدخل علماءها في صراع شديد، والذي ظهر بين علماء الفقه، وعلماء التصوف الذين يبحثون عن الحقيقة الإلهية[50]. أو ما يمكن التعبير عليه بعودة الصراع بين التصوف السني، والتصوف الفلسفي.

وهو الصراع الذي بدأت معالمه خلال المرحلة السابقة ، غير أن عودة الشيخ امحمد بن عبد الرحمن القشطولي الجرجري الأزهري من الشرق بعد أن تتلمذ على مؤسس الطريقة الخلواتية[51]. والذي كلفه بنشرها في السودان والهند[52] وبعد ذلك في الجزائر. فعندما استقر الشيخ ابن عبد الرحمن ببني إسماعيل . بدأ يعمل على نشر طريقته (الرحمانية)، بالمنطقة ، وبذلك أخذت هذه الطريقة – التي يمكن اعتبارها محلية حتى وإن كانت مبادئها مشرقية- تنتشر بين السكان، ولم تمض مدة طويلة حتى غدت الطريقة الصوفية الأكثر انتشارا.

سواء في زواوة الشرقية أو الغربية، خاصة بعدما انتقلت رئاسة الطريقة إلى الشيخ الحداد "بصدوق أوفلة"[53]. خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري/19م.

إن الطريقة الرحمانية، لم يتوقف انتشارها بين سكان المنطقة فحسب، بل عرفت انتشارا في الشرق (قسنطينة عائلة باش طرزي، وبوسعادة عائلة القاسيمي وكذا في الجنوب من خلال زاوية بلمختار في (الجلفة)[54]. وتمكنت بفضل تعاليمها من الانتشار في معظم جهات الشرق الجزائري[55] وذلك راجع إلى :

- أن الطريقة الرحمانية : كانت الوحيدة التي أسسها بالمنطقة أحد سكانها، وهو ما جعل الناس يلتفون حوله وحولها، سواء من قبيلته أو من القبائل الأخرى، وهو عامل ساعد على انتشارها في منطقة زواوة.

- إتباع الطريقة الرحمانية لنهج حاول أن يوفق بين العادات والتقاليد والأعراف السائدة في المنطقة، وبين ما لا يخالف النصوص الشرعية، أي أنها حاولت الجمع بين الشرع والعرف (ثاشرعيث ثاعرفيث) . وهي الظاهرة التي لم يعمل بها أحد قبله - حسب علمي - وهذا ما جعل مختلف فئات المجتمع تلتف حولها.

- أن الطريقة الرحمانية جمعت بين التصوف والعلم والجهاد، مما جعلها طريقة استقطبت العلماء والمتعلمين والمجاهدين فكثر عدد أتباعها، وانتشرت بسرعة في النواحي الشرقية من الجزائر عامة.

- بعض الطرائق الصوفية المنتشرة في المنطقة :

من بين أهم الطرائق الصوفية المنتشرة في المنطقة، والتي كانت موجودة فيها قبل القرن العاشر، وكان لهذه الطرائق أتباع في المنطقة نجد:

1- الطريقة القادرية: وهي من أولى الطرائق الصوفية التي حلت ببجاية، بواسطة الشيخ أبو مدين بن شعيب البجائي، في حدود القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وهي طريقة ترجع أصولها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد، ومن هذه الطريقة تفرعت مجموعة من الطرق الأخرى : كالشاذلية التي اتبعها الكثير من علماء المنطقة خاصة، وعلماء المغرب الإسلامي عامة.

أمثال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ يحي العدلي، والشيخ محمد السعيد الشلاطي، وأحمد بن يوسف الملياني، والشيخ الحسين الورثيلاني[56].

وأرى بأن انتشار هذه الطريقة بالمغرب الإسلامي عامة ومنطقة زواوة خاصة يعود إلى تعاليمها التي تعتمد على البساطة والصبر، كما جاء على لسان مؤسسها: «ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا ببقبقة الصناعة، وإنما بالصبر على الأوامر واليقين في البداية. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

2- الطريقة الزروقية : وظهرت في مدرسة بجاية، على يد: أحمد زروق البرنسي، ومنها اتسع نطاقها في حوض الصومام، بعدما أسس زاويته ببني وغليس. بتمويل من شيخه وأستاذه الشيخ يحيى العدلي[57]. فعرفت هذه الطريقة التي وضع لها مؤسسها قواعد مبنية على القرآن والسنة، وحاول بوساطتها إحياء التصوف السني ببجاية. بعدما عرف انحرافا عن ذلك التصوف، الذي وضع معالمه بالمنطقة الشيخ: أبو مدين بن شعيب[58]. فالطريقة الزروقية عرفت توسعا كبيرا، حتى وصلت إلى الشرق الجزائري وذكر ابن الفكون، الذي كان معاديا للطرقيين والطرائق الصوفية، أنه كان شخصيا من المتصوفين، بل وحدد طريقته على أنها شاذلية زروقية[59]. لما لها من تعاليم و مبادئ مبنية على الكتاب والسنة، وهي المبادئ التي وضحها مؤسس الطريقة في قوله: « أصول طريقتنا التي تبنى عليها عشرة أشياء، خمسة ظاهرة، وخمسة باطنة...»[60].

فالطريقة الزروقية الأحمدية، أصبحت وبجدارة مجمع النخبة المثقفة في المنطقة، والتي لا تزال آثارها إلى يومنا هذا، خاصة في الأساطير الشعبية بمنطقة سيدي عيش (عرش بني وغليس) وبقرية إزروقن بالتحديد[61].

3- الطريقة الشاذلية : تعتبر الطريقتان الدرقاوية والناصرية، فرعان من الطريقة الشاذلية، وحسب رواية الصادق البجاوي، فإنه حتى الطريقة الطيبية كان لها أتباع بمدينة بجاية في بداية القرن العشرين. وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن هؤلاء

الأتباع، قد اتخذوا هذه الطريقة منهجا لهم قبل هذا التاريخ، ولعل ذلك يعود إلى الفترة العثمانية التي عرفت توافدا للكثير من الشخصيات المغربية إلى المنطقة[62].

وبينما نجد للطريقتين الأخرتين (الدرقاوية والناصرية) أتباع لهما كذلك، فالطريقة الناصرية كان من بين أتباعها الشيخ الحسين الورثيلاني[63].

4- الطريقة الدرقاوية : إن بعض المصادر التاريخية تذكر بأن ثورة درقاوة، بعدما فشلت في قسنطينة و جيجل انتقلت إلى بجاية التي كان لها أتباع بها[64]. هذامن جهة، ومن جهة أخرى كان للطريقة أتباع في زمورة القريبة من برج بوعريريج. هذا ونجد الطريقة الحنصالية التي يوجد أتباعها بجرجرة (ببني إيراثن)، وكذا بالنسبة للطريقة العيساوية، التي يوجد أتباعها في أسفل جبل بالوة (أبو اللواء)، بضواحي تيزي وزو، وبعض أتباعها يوجدون في حوض بوغني[65].

إن هذا الانتشار الواسع للطرائق الصوفية في المنطقة، لم يكن مبنيا في جله على تأسيس الزوايا، بل نجد أن معظم المنتمين إلى هذه الطرائق. يشكلون أتباعا منفردين كفقراء وإخوان ومحبين، كما أن لهذا الانتشار أسباب وعوامل ساعدت على دخول التصوف وانتشاره في منطقة الزواوة. فما هي هذه الأسباب ؟

- عوامل دخول التصوف والطرائق الصوفية إلى منطقة زواوة:

إن دخول التصوف إلى المنطقة، لا يمكن دراسة أسباب توغله بها، دون التعرض إلى الأسباب البعيدة العامة، التي ساعدت على انتشار هذه الظاهرة الروحية بين الشعوب، خاصة وأن العوامل المساعدة على انتشارها قديمة ترجع إلى ما قبل الفتح الإسلامي، حيث نجد بأن سكان شمال إفريقيا عامة، والذين اعتنقوا المسيحية الدوناتية بوجه خاص، كانوا يميلون كثيرا إلى حب مبدأ المساواة بين الناس، وهي الظاهرة التي يتجمع سكان المنطقة حولها[66]. فالحياة الاجتماعية، وطبيعة المجتمع الأمازيغي الذي يلتف حول زعامة محلية ذات نفوذ ومكانة اجتماعية، جعلتهم يتوحدون حول زعامة معينة، هذا في وقت السلم. أما في وقت الحرب، فإن انتشار ظاهرة الرباط والمحارس على الثغور ظهرت كفكرة عسكرية دفاعية، تركت آثارها على الحياة الاجتماعية بالمنطقة،

وأخذت تتوسع، وتترسخ معالمها بين الأوساط الشعبية، فالتف الناس حولها للدفاع عن البلاد، و العباد، وصد هجمات النصارى[67]. وبعد ضعف القوى السياسية المحلية، وتزايد الضغط المسيحي بعد سقوط الموحدين. عادت ظاهرة الثغور، إلى المغرب الإسلامي عامة، بعد ظهور قوة جديدة التف الناس حولها، وهذه القوة جاءت لإنقاذ المسلمين من الاضطهاد المسيحي والمتمثلة في القوة العثمانية، كما أن الصراع الذي شب بين الإمارات المحلية حبا في التوسع، أو السيطرة على السلطة، قد ساهم في ضعف المغرب الإسلامي عامة[68]. وفي خضم هذه المتغيرات أحاول تحديد أسباب دخول التصوف إلى المنطقة في الجوانب الآتية :

- العوامل السياسية :

يعتبر سقوط مدينة بجاية في يد الاسبان (916هـ/1510م) من بين العوامل الرئيسية التي ساعدت على انتقال العلماء والفقهاء، والمتصوفين الزهاد الذين كانوا في المدينة إلى المناطق الداخلية[69] الجبلية. إلا أن انعدام سلطة مركزية قوية قادرة على توحيد السكان لمواجهة الخطر الإسباني، جعل الناس يميلون إلى الزعامات المحلية والإمارات الجديدة التي بدأت تبرز في المنطقة كإمارة آل القاضي بزواوة الغربية، وإمارة آل مقران ببني عباس في زواوة الشرقية[70].

إلا أن الإمارتين لم تتمكنا من تأسيس نظام محلي، ولم تعملا على توحيد جهودهما سواء فيما يتعلق بمقاومة العدو الخارجي، أو في رسم طبيعة العلاقة بين هاتين الإمارتين والسلطة المركزية، بل بزر صراع شديد بين الإمارتين حول من يستطيع التحكم في المنطقة، أو التقرب إلى السلطة المركزية بالجزائر[71].

حاول أمراء الإمارتين التحكم في سكان المنطقة وإخضاعهم عن طريق استخدام القوة والتسلط، بل وتسخير إمكانياتهم القليلة في خدمة السلطة القائمة سواء في زواوة الشرقية، أو في زواوة الغربية، وقد أدت السياسة المتبعة من طرف حكام الإمارتين إلى اتساع الهوة بين السكان المحليين وأمراء الإمارتين، وعوضا من أن يتوجه أمراء هاتين الإمارتين إلى توحيد الجهود لمواجهة الأخطار الخارجية وتحسين الأوضاع الداخلية، أو التحالف مع السلطة المركزية

التي قدمت إلى المنطقة استجابة لاستغاثة السكان[72]، فإنها توجهت إلى زيادة فرض الضرائب على السكان واستغلال إمكانات الأهالي في خدمة أغراضهم الخاصة، مما جعل السكان يبحثون عمن يكون سندا لهم في وجه هؤلاء المتسلطين عليهم، فوجدوا غايتهم في فئة من الوافدين إلى منطقة زواوة من أجل نشر التعليم العربي الإسلامي في المنطقة، وهم فئة المرابطين الذين وقفوا إلى جانب المستضعفين والفقراء في المنطقة[73]، فاقتدى بهم الزواويون لكونهم يتصفون بأخلاق حميدة وسيرة حسنة، إضافة إلى تفرغهم لتعليم أبنائهم وتربيتهم تربية دينية إسلامية حسنة.

إن سلوك هؤلاء المرابطين والعلماء والمتصوفين، جعلت السكان ينظرون إليهم نظرة وقار وتقديس متميز، وهذا ما ذكره الباحث الفرنسي ـ أوكابيتان ـ (AUCAPITAINE) الذي زار زاوية ابن علي الشريف الشلاطي، وذكر بأن السكان في المنطقة يقدسون الأولياء والمتصوفين المرابطين ويبجلونهم[74].

إن ولاء سكان المنطقة لرجال الدين، يبين بأنهم تخلوا عن رجال السلطة الذين فشلوا في توحيد سكان المنطقة، كما فشلوا في حل المشاكل التي يعاني منها السكان، فزاد ذلك في تمسك العامة برجال الدين الذين لا تربطهم بالسلطة صلة، سواء مع السلطة المركزية أو الحكم المحلي في المنطقة، والمتمثل في إمارة بني عباس أو إمارة آل القاضي[75]، فتحول رجال الدين والعلم إلى سلطة محلية، عوضت السلطة السياسية، وأصبح نفوذهم يتعدى نفوذ الأغوات والقياد[76] في تنظيم السكان وتوجيههم، ومثال ذلك ما وقع لسلطان آل القاضي مع الولي الشيخ سيدي منصور الجنادي الذي أراد تسخير إمكانيات أعراش كل من بني إيراثن وبني عيسي وبني جناد في خدمته الشخصية، وكيف كانت عاقبة ذلك[77].

لقد أدى هذا التحول الذي عرفته المنطقة بفعل الصراع الداخلي بين الإمارتين، والفراغ السياسي الذي ساد المناطق الجبلية عامة في الجزائر خلال العهد العثماني، إلى جعل السكان المحليين الذين كانوا لا يرضون الانصياع

لأي دخيل عليهم، يلتفون خلال هذه الفترة حول الشخصيات الدينية، والعلمية الوافدة إلى المنطقة من جهات أخرى، سواء كانت من المغرب أو المشرق، وكان هذا بمثابة عامل ساعد على ظهور أفكار جديدة في المنطقة، يمكن تلخيص مميزاتها في الجوانب التالية:

1- بداية الصراع بين علماء الشريعة (الفقهاء) وفئة المرابطين: إن هذه الفئة الوافدة الحاملة لصفة التصوف والولاية، والمتمثلة في فئة المرابطين قد أدت إلى تكوين فكر ثقافي جديد قائم على المزج بين الإرث الحضاري للسكان، والمتمثل في القوانين العرفية السائدة بالمنطقة منذ الفترة القديمة، والقوانين الشرعية المستمدة من الشريعة الإسلامية، التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، مما أضفى على المنطقة تقاليد شفوية أمازيغية، وثقافية عربية عالية، ومعرفة واضحة وصحيحة للقوانين الشرعية[78].

2- بروز أفكار جديدة جاء بها الأولياء والعلماء الصالحون والمرابطون: والمتمثلة في فكرة الحرية، والتخلص من الاستبداد والقهر المفروضين على السكان من قبل الأمراء المحليين، أو ممثلي السلطة المركزية في المناطق الخاضعة لها، فكان هذا عاملا مساعدا على استبدال القوانين والأعراف الوضعية بالقوانين السماوية، خاصة تلك التي تخدم الحرية، وتناهض الاستعباد[79].

غير أن المحلل لرأي بوليفة، يرى بأن السبب المباشر الذي جعل سكان المنطقة يقبلون الغريب ويحتضنون دعوته، إنما الغرض منه حماية المصالح الذاتية، والدفاع عنها، أي أن ذلك يكون مبنيا على الجانب المادي بالدرجة الأولى. وهنا يمكن أن تطرح عدة تساؤلات منها:

- لماذا آزر سكان هذه المناطق الجبلية الحركات الدينية السابقة كالحركة الشيعية، وغيرها وهذا قبل ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية بمدة طويلة ؟

وللإجابة على هذا التساؤل : يمكن أن أعود إلى طبيعة السكان الذين يقبلون الخضوع للزعامة الدينية بسهولة، بينما يرفضون الخضوع للسلطة السياسية. ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل السكان يستقبلون هذه الفئة

المعتمدة على العصبية الدينية (التصوف أو النسب الشريف «إمرابظن»)[80]. فيتخذونهم سندا لهم للدفاع عن مصالحهم.

كما أن هنالك ظاهرة أخرى تتعلق بطبيعة تسيير شؤون المنطقة، القائمة أساسا على ما يعرف ب: (ثاجماعث)، وهي بمثابة نظام داخلي لكل قرية تتصف بالشورى، واتخاذ القرار الجماعي، الذي أصبح في هذه المرحلة مهددا بالزوال نتيجة اكتساح القوى الجديدة المحلية الإقطاعية[81]. التي فشلت في توحيد هؤلاء السكان الذين توجهوا إلى الزعماء الصوفيين، والطرقيين الذين تمكنوا من توحيدهم، فحققت الطرائق الصوفية ما لم تحققه السلطة السياسية في توحيد السكان من جهة، والمساهمة في فشل القوى المحلية من جهة أخرى، وهي القوى التي لم تتمكن من المحافظة على نفوذها في كامل المنطقة، ولا من توقيف السلطة المركزية في بسط نفوذها على بعض الأقاليم ومناطق البلاد، خاصة الساحلية: كدلس وأزفون وتقزيرت وبجاية، وكذا السهلية: كسهل سيباو وحوض بوغني وسهول حمزة ومجانة... [82]، ونظرا للمكانة التي يتمتع بها المرابطون ورجال الدين في الأوساط الاجتماعية المحلية، أصبحوا يشكلون قيادة معترف بها لمواجهة الاعتداءات الخارجية أو النظام المحلي السياسي[83]. ومن خلال هذا يظهر بأن الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في المنطقة من بين العوامل المساعدة على انتشار الطرائق الصوفية في منطقة زواوة، وذلك نتيجة وجود أرضية خصبة قابلة لهذه البذرة التي تحمل في طياتها معالم روحية، فاستقرت وانتشرت في ربوع منطقة زواوة عدة طرائق وساهمت في بعث الحياة الثقافية والعلمية بين السكان في المنطقة وخارجها.

- العوامل الاجتماعية :

عرفت منطقة زواوة في تاريخها القديم والحديث، صراعات محلية وحروبا كثيرة، جعلت السكان منقسمين إلى صفوف متعادية ومتحاربة[84]. وقد بقي هذا التقسيم قائما بعد سقوط الحفصيين الذين سيطروا على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط، وضمن هذا القسم منطقة زواوة الشرقية. هذا وكان لضعف

الزيانيين في تلمسان دوره في ضعف وتراجع الإمارات التي فرضت سيطرتها على بعض مناطق الجهة الغربية من منطقة زواوة، خاصة منها إمارة الثعالبة التي كانت تشرف على حوض وادي يسر[85].

أمام هذه الأوضاع غير المستقرة في المنطقة، والتي تركت آثارا سلبية في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية للسكان. أصبحوا يبحثون عن أي منقذ لأحوالهم المتدهورة، الناتجة عن الصراع الداخلي بين الصفوف (الصف الفوقاني والصف التحتاني)[86]، في إطار القبيلة الواحدة، وكذلك الصراع القائم بين الإمارتين المحليتين اللتين تفرضان سيطرتهما على المنطقة، وذلك نتيجة الحروب التي نشبت بين الإمارتين، وكذا الحروب التي نشبت بين السلطة المركزية، وبعض زعماء المنطقة : كحرب عرش بني إيراثن ضد الحكم العثماني وسلطة الباي محمد[87].

فكانت هذه الأحداث وغيرها، من بين العوامل التي جعلت السكان ييأسون من حالتهم، بل يفقدون الثقة في الزعامات المحلية السياسية، ويستبدلونها بزعامة جديدة قائمة على العصبية الدينية، فكانوا يرون في هؤلاء المتصوفين والمرابطين بديلا عن السلطة السياسية، فهم لا يخسرون شيئا في الالتفاف حولهم، فإن انتصروا على خصومهم غنموا من ذلك ماديا، وإن قتلوا فإنهم شهداء - حسب اعتقادهم - كونهم أيدوا رجالا لا يبحثون عن المال، أو الجاه، أو السلطة. بل همهم هو نشر العدل وتطبيق الأحكام الشرعية[88]. كما أن أسلوبهم مبني على تطبيق التعاليم الدينية الداعية إلى المصالحة والأخوة ونبذ الخلافات[89] بين الناس، وهذه الصفات هي التي جعلت السكان في المنطقة يساهمون في انتشار الحركات الصوفية والطرقية في المنطقة.

وعلى كل، فإن الحياة الاجتماعية في المنطقة، ونتيجة للإحباط واليأس الذي عانى منه سكانها من بين العوامل التي ساعدت رجال الطرائق الصوفية، والمرابطين في بسط نفوذهم على الحياة الاجتماعية بالمنطقة.

كما أن السكان قد توجهت أنظارهم إلى المرابطين، لكونهم الزهاد الذين يمثلون مظهرا من مظاهر التصوف الشعبي، بل أكثر من ذلك فإن السكان في المنطقة يلتمسون النجاة على أيديهم[90]، ويعتبرونهم وسيلة لصد الخطر الذي يهدد بلادهم والذي مثله النصارى الإسبان الذين فرضوا سيطرتهم على بعض الأجزاء من بلادهم، وتزعم هذه الفئة لعملية الجهاد في سبيل الله في شمال إفريقيا عامة وبين سكان المنطقة بوجه خاص، أعطى للمرابطين مكانة هامة بين السكان[91]. لكونهم كانوا زعماء الجهاد، ومعلمين ومربين للأولاد في المنطقة، فوجدوا فيهم من يملأ الفراغ الفكري الذي كانوا يعانون منه[92].

إن إشراف المرابطين والمتصوفين على المؤسسات التعليمية، ومساهمتهم في حل مشاكل السكان ، وتزعمهم للجهاد في سبيل الله، من الأمور التي جعلت قلوب العامة تهوي إليهم، فتحولوا إلى قوة رئيسية في المجتمع المحلي[93]، وساهموا في انتشار الطرائق الصوفية في المغرب الإسلامي عامة، ومنطقة زواوة خاصة[94].

وعلى كل، فإن الحياة الروحية في منطقة زواوة، تظهر تأثيراتها في الحياة الاجتماعية، والثقافية بين السكان من خلال الزوايا والطرائق الصوفية التي عرفت انتشار واسعا في المنطقة، ومعظم المناطق الجبلية في الجزائر، وزاد هذا التأثير بظهور الطريقة الرحمانية التي جاء بها الشيخ سيدي امحمد بن عبد الرحمن القشطولي الجرجري، وقد تجلت تأثيراتها وإسهاماتها في انتشارها بين السكان لما لها من قواسم مشتركة بالأعراف المحلية وتناسقها مع طبيعة أهالي المنطقة، وتبني الأفكار الشعبية السائدة بين السكان، الذين اتبعوا تعاليمها، فأضحت من أكثر الطرائق الصوفية انتشارا وتأثيرا في السكان.

- الهوامش :

1- ينقسم المجتمع المحلي إلى فئتين فئة لقبايل، وفئة لمرابطين، والفئة الثانية، تعود أصولها إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، في اعتقاد السكان، بل أن كل قادم من الشرق العربي يعتبر مرابطا في العرف المحلي. خلافا لما هو موجود في الجنوب الجزائري، إذ نجد الأشراف الذين هم من آل البيت، وغيرهم من أبناء الصاحبة هم المرابطون، كما أن هذه الفئة من السكان ليست لهم آية صلة بدولة المرابطين التي قامت في المغرب الأقصى. والكلمة مأخوذة من الرباط، والذي يعني المرابطة والجهاد في سبيل الله سواء كانوا أشراف أو غير أشراف.

2- هو شعيب بن الحسن الأندلسي، سيد العارفين وقدوتهم، عرّف به الكثير من العلماء الذين أجمعوا على قطبانيته، وغزارة علمه وصدق ولايته، وهو من الأندلس، حل بالمغرب ثم سكن بجاية التي فضلها على الكثير من المدن، و توفي سنة(594هـ) بالقرب من تلمسان. حول شخصيته أنظر:

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2011، ص ص181، 187. وكذلك:

- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ج 01، ص 125- 126. وعن دوره في نشر التصوف بالمنطقة انظر/

- G. Marcais, La Bérbérie Musulmane et orient, in, Moyen age, édition, montagne, Paris, 1946, p 293.

3 - محمد أرزقي فراد: الحاج محمد السعيد تازروت إطلالة على الشعر الصوفي الأمازيغي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص31.

4 - أنظر ترجمته في: أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، دار البصائر، الجزائر، 2007 ،ص:60.

5 ـ أنظر ترجمته في: التنبكتي: نيل الابتهاج... ،ص ص 81، 82.

6 الغبريني: عنوان الدراية... ، حقق وعلق عليه عادل نويهض، منشورات الآفاق الحديثة، ط 02، بيروت، 1979، ص: 19.

7 محمد السيد عبد الكريم الكسنزاني: التصوف الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، مطبعة مدبولي، مصر 1990، ص20

8 الحسين بن محمد الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، 2 ج،مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، 2006، المجلد الأول، ص20.

9 الوثيلاني، المصدر السابق، ص ص 94، 95.

10 عبد الستار عز الدين الراوي: التصوف والبارسايكولوجيا، مقدمة أولى في الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، 1994، ص19.

11 ساعد خميسي: حول حقيقة التصوف، في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع 12، رجب 1423هـ/ سبتمبر 2002، دار البعث، الجزائر، ص 80.

12 Depont Octave et Coppolani Xavier: Les Confréries Religieuses Musulmanes, Typographie et lithographie, Adolphe Jourdan , Alger, pp 193 etc.

13 - يحي بوعزيز، " أوضاع الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر خلال القرنين 19 و 20م "في، جريدة الشعب اليومية، ع 7661، الصادرة في 13 06 1988م.الجزائر.

14 بوعزيز المرجع نفسه.

15 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (16-20)، 2ج، ط2، م.و.ك، الجزائر 1985، ج1، ص: 464.

16 - (A) LAROUI: L'Histoire du Maghreb, essai de synthèse, collection MASPERO, Paris 1976, p: 160.

17 هو عبد السلام بن سليمان الملقب بمشيش ابن مالك بن علي، كانت ولادته حوالي سنة 559هـ وهو من أكابر الأولياء العارفين بالله، وقد أخذ الطريقة على الشيخ عبد الرحمن المدني . وراح ضحية مؤامرة دبرها أعداؤه سنة 622هـ/ 1225م. انظر /

- عبد الصمد العشاب، القطب الرباني مولاي عبد السلام بن مشيش، الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، د، ت

18 الشيخ الإمام وشيخ مشايخ الإسلام حجة الصوفية، وقدوة أهل الخصوصية ، وأستاذ الطريقة ، وسلطان أهل الطريقة. يعود نسبه إلى الإمام علي (رضي) ويعتبر مؤسس الطريقة الشاذلية، نسبة إلى شاذلة، وهي قرية من قرى المغرب، انظر عنه:

- محمد بن محمد الأندلسي، الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، 02 ج ، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1984، ص ص، 832- 833،

19 هو محمد بن علي بن محمد الحاتمي المرسي ، والذي يعرف بابن عربي محي الدين، وهو الشيخ الأكبر حكيم المتصوفة في عصره، توفي سنة 638هـ/1240م . انظر عنه/

- إدريس عزوزي، الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية، تحقيق ودراسة لكتابه عدة المريد الصادق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ، 1998، ص 278.

20 هو عبد الحق بن إبراهيم المرسي ولد بالأندلس عام 614هـ. وقد اشتهر في علوم الباطن وانتحل التصوف فمالت إليه العامة. انظر: أبو العباس أحمد الغبريني: المصدر السابق، تحقيق محمد بن أبي شنب، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص110. وكذلك:

- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، ط.ح، م.وج، رقم :340 ، ص 279.

21 (توفي في 668هـ/1269م)، ينسب إلى مدينة ششتر بالأندلس، ويكنى بابي الحسن، وقد ذكره الغبريني في عنوان الدراية ، ص 210.

22 الغبريني: المصدر السابق، ص: 46.

23 سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص.79.

24 الإمام العلامة الصالح المحقق كبير علماء بجاية في وقته، كان ورعا زاهدا جليلا إماما علامة بارعا، أخذ عنه الكثير في بجاية كعبد الرحمن الوغليسي، ويحيى الرهوني، وابن خلدون، وأسس زاويته بالقرب من عزازقة، توفي سنة(760هـ). أنظر: الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، 2ج، موفم، الجزائر، 1991،ج1 ، ص.277-279

25 (توفي 840هـ/1436م) فقيه مالكي من أهل بجاية . قال عنه الثعالبي " لو أن رجلا لم يعص الله لكان سيدي أحمد بن إبراهيم" انظر:

- السخاوي الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ج 1، ص 209.

26 هو العالم أبو زكرياء يحي بن احمد... ابن عجيس يعود نسبه إلى الأشراف (ت 881هـ/1476م) وقدم والده إلى المنطقة من المغرب متوجها إلى البقاع المقدس، فولد بعرش بني عباس في تاريخ غير معلوم، ثم درس ببجاية على علمائها . انظر:

- الورثيلاني، مصدر سابق، ص 08.

- مخطوط لشجرة نسبه مصورة من وثائق حفدته، توجد عندي نسخة منها.

27 عبد الرحمن الثعالبي: هو عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري، عالم زاهد ورع، ولد سنة 786هـ أو 787هـ، بيسر، وتوفي سنة 875هـ بمدينة الجزائر، ولا يزال ضريحه مزارا. حول شخصيته أنظر:

- الحفناوي : المرجع السابق، ص ص:73...78. وكذلك: محمد الشريف قاهر: الأنوار في آيات النبي المختار، 3ج، دار ابن حزم، بيروت، 1426هـ/ 2005م. ج1، ص: 82 وما بعدها.

28 أحمد زروق: هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي، الشهير بزروق، وهو إمام عالم فقيه صوفي ولد سنة 846هـ بفاس، وتوفي سنة 899هـ بمسراطة (طرابلس). أنظر: التنبكتي: مصدر سابق، ص: 71.

29 -Djamil AISSANI: le soufisme ou sein du mouvement Intellectuel à Bejaia et sa Région (x1-xx siècles) Bejaia 17et18 septembre 2003, p: 06.

30 ورقة من الشيخ محمد الشريف قاهر نائب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

31 أبو القاسم سعد الله: بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني 1518.1830، في مجلة: بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، أعده للنشر صالح سعداوي، تقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، 2000، ص 101.

32 أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1996، ص 93.

33 الملياني: هو الشيخ الولي الصالح الغوث الزاهد... ، وهو من تلاميذ الشيخ زروق، سكن منطقة زواوة وترك فيها ذريته قبل انتقاله إلى مليانة، توفي سنة 927. أنظر الصباغ: بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار. مخ. م.و.ج، رقم:1707، ص: 21.

34 المهدي البوعبدلي:"الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها"، في: الأصالة، ع: 14، الجزائر، 1974، ص: 143.

35 عمار طالبي: "الحياة الفكرية في بجاية. الفلسفة والكلام والتصوف"، في: الأصالة، السنة 4، صفر، ربيع الأول، 1394، مارس ،أبريل، 1974، ص: 172.

36 بيري رايس:الكتاب البحري، نقلا عن: سعد الله: تاريخ...، ج2، ص469.466.أنظر كذلك:

- الورثيلاني: المصدر السابق، ص: 27.

37 سعد الله: تاريخ الجزائر... ج2، ص 466.

38 يحي بوعزيز، " أوضاع.

39 سعد الله:تاريخ الجزائر...، ج2، ص:466.

40 عن هذه الطريقة انظر :

- Depont et Coppolani, op , cit , pp 456-458.

41 (A) MAHE: Histoire de la grande Kabylie XIX – XX siècles Anthropologie historique du lien social dans les communautés villageoises, Editions Bouchene, France, 2002, p: 47.

42 عبد الكريم بن الفكون: منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، لبنان، (د .ت)، ص: 32.

43 الورثيلاني، مصدر سابق، ص 08.

44 Aucapitaine , La Zaouïa, p24.

45 الرحلة، ص 65، 289.

46 H) TOUATI: Entre dieu et les hommes, lettres saintes et sorciers au Maghreb (17eme siècle), édition de l'école des hautes étude en sciences sociales, Paris, 1974, p: 92.

47 سعد الله: بعض التحولات... ص ، 102.

48 نفسه، ص101.

49,(H) TOUATI: op, cit, p 91.

50 Aissani, op.cit.

51 تعتبر من الطرق الهامة المشرقية، وقد أخذت تسميتها من مؤسسها محمد الخلواتي . انظر عنها/

- Depont et Coppolani, op.cit, p 379

52 سعد الله، تاريخ ... ج 02، ص 514.

53 يحيى بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد) ، ش.و. ن. ت، الجزائر (د. ت)، ص 72.

54 بوعزيز: المرجع السابق، ص72.

55 صلاح المؤيد العقبى: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، تاريخها ونشأتها، دار البرق، لبنان، 2002 ، ص 145.

56 الورثيلاني: المصدر السابق، ص: 289. و كذلك العقبي، المرجع السابق، ص 143.

57 محمد الطاهر آيت علجت: مقابلة معه ببيته يوم:2006/06/29.

58 أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 109.

59 ابن الفكون: المصدر السابق: ص: 04.

60 أحمد زروق البرنسي: كتاب إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح المبين، مخ.م.و.ج، رقم:2330، ص:26.

61 - (DJ) AISSANI: o p, cit, p:09.

62 للتوسع أكثر، أنظر المبحث الآتي.

63 MOHAMED HADJ SADOK: A travers la Bérbérie orientale du 18eme siècle avec le voyageur AL-WARTHILLANI, in, R A, N : 95, o.p.u, Alger, année 1951, P P: 218,219.

64 أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص: 87.

65 (DJ) AISSANI: o p, cit., p:10.

66 (L) RINN: MARABOUTS et KHOUAN Etude sur L'islam en Algérie, Adolph, Jourdan libraire, éditeur, Alger, p: 23.

67 محمد الفاضل بن عاشور: كتاب أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مخ.م.ج، رقم: 15267.

68 محندأكلي آيت سوكي: تأثير القوى الدينية في منطقة القبائل وأدوارها ومواقفها في مختلف الجوانب الحياتية من القرن 10. 13هـ/ 19.16م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006. 2007، ص 71.

69 (Ch) FERAUD: Conquête de Bougie par les Espagnoles (occupation de Bougie), in, R A, N°12, o.p.u, Alger, année 1868, p p: 253-254.

70 -(S.A) BOULIFA: LE Djurdjura à travers L'Histoire (depuis l'Antiquité jusqu' à1830) ORGANISATION ET INDEPENDANCE DES ZOUAOUA (grande Kabylie), JBRINGAU Imprimeur E'DITEUR ,Alger, 1925,pp 188.

71 BOULIFA , op ,cit , p188.

72 BOULIFA , op,cit .p 157.

73 محمد السعيد بن زكري: أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، 1903،ص: 11. وكذلك :

- أبو يعلى الزواوي: تاريخ زواوة، مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005، ص: 105.

74 OP ; CIT ; p 22

75RINN , op ,cit ,p 14.

76RINN, op cit p 15.

77 أنظر أحمد ساحي: أعلام من زواوة إيقواون 1، مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، (ب ت)، ص:41
78 - H. TOUATI: o p, cit, pp 88-93.
79 S.A. BOULIFA: o p, cit., p:157.

80 أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص 105.
81 الإقطاعية المحلية الجديدة: المقصود بها آل القاضي بالزواوة الغربية، وبني عباس بالزواوة الشرقية. أنظر: BOULIFA: o p, cit., p: 158.
82 A) MAHE: o p, cit, p: 23.
83 مسعود العيد: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني. في: مجلة سيرتا، ع10، الجزائر، 1988، ص:19 .
84 HANOTEAU et LETOURNEUX: LA Kabylie et les coutumes kabyle, présentation de Alan Mahé, et Tilman HANNEMANN , 3 t, Edition Bouchene ,T2 , p 17..
85 سعيدوني:القبائل، محاضرة غير منشورة 1992، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية(نموذج بلاد القبائل)، عمل ونشر:
International Congress On learning and éducation IN The Ottoman World ISTANBUL 12-15 April 1999.
86 HANOTEAU et LETOURNEAU: o p, cit.,T2, p p18-19.
87 أرزقي شويتام : نهاية العهد العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830. رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1988، ص: 21.
88 S. A) BOULIFA: o p, cit, p:158.

89 الورثيلاني: المصدر السابق، ص: 8. وكذلك:
- (S. A) BOULIFA: O P, CIT,P: 189.
90 ألفرد بل: الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص:42.
91 جون ب وولف: الجزائر وأوربا. ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص:27.
92 محمد نسيب: زوايا التعليم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، (د، ت)، ص 210.
93 BOULIFA: OP, cit , p 189.
94 عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1981، ص 238.